تفسير

سورة التحريم

تفسير سورة التحريم

بسم الله الرحمن الرحيم

نظام السورة وموقع آياتها

(١)

هذه السورة آخر السور العشر التي نزلت في تطهير المؤمنين وتزكيتهم كما وعد الله، وهي خاتمة سور الأحكام الشرعية. وتفصيل هذا البحث في أول سورة الحديد. وهي صنو لسورة الطلاق التي قبلها، فانظر في تأويلها.

وختم هذه العشرة الكاملة بهذه السورة التي تؤكد الاحتساب الشديد على أنفسهم وأهليهم، وختم هذه السورة بما صرح بأن في دين الله العزيز "لا تزر وازرة وزر أخرى"، و"لا تجزي نفس عن نفس شيئا" كما أشار في آية/٧: ﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾، أي ليس هناك عذر لمعتذر فإن الجزاء بالعدل والعلم وحسب الأعمال كما جاء كثيرا في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ [سورة النجم/٣٩]، وقوله: ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ [سورة النمل/٩٠] و تفصيل ذلك في الفصل السابع. فوجبت علينا شدة الاحتساب.

وإنما بدأ الكلام بالنبي، وبأمر يظنونه هيّنا بل من الحسنات فكم من الناس حرموا على أنفسهم طيبات أحلت لهم ظنا بأنهم يحسنون، ويرضون

به ربهم، فكشف لنا عن حقيقة هذا الدين القيم الفطري، وهذا هو النور الكامل الموعود في كلام عيسى عليه السلام حسب رواية إنجيل يوحنا ولـــذلك ترى ذكر النور في مثل هذا المقام وبسط الكلام في تفسير ســـورة النـــور والحديد. ثم ضم بذلك ما كان فيما بين النبي وأهل بيته لتعلم أن المداهنة لو جازت في الدين لجاز بالرسول وأهل بيته (١-٥).

فبعد هذا التمهيد خاطب المؤمنين كافة بالتحذير الشديد لأنفسهم وأهليهم أسوة بالنبي (٦-٧). ثم سلاهم بأن الله يحذركم ليكفر عـــنكم سيآتكم، ويجمعكم بنبيكم، فعليكم أن تشمروا له. وبشر بأن الله قد قضى أن يكرم نبيه يوم القيامة بكرامة أهل بيته المطهرة وأصحابه الكرام البررة. ولقد وجدت العرب في قلوبهم أن إهانة مولى المرء مثل إهانته، كما قـــال طرفة صاحب المعلقة:

وأعلم علما ليس بالظن أنه ... إذا ذل مولى المرء فهو ذليل ٨٠

فلما أراد الله أن يكرم النبي أكد في تطهير أصحابه كما وعـــد في وصف النبي مرارا: ﴿ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ [ســـورة آل عمران/١٦٤، وسورة الجمعة/٢].

وكان أكبر من ذلك تطهير أهل بيته، فشدد عليهم. ولو عاملـــهم بالمداهنة يوشك أن يفرقوا عن النبي. فكان فضل الله على النبي بأن بـــشره بنفي الخزيان عنه وعن خاصته وبطانته. وبهذه البشارة علمهم بأنه تعالى لم يرد من التشدد عليهم حرجا، بل تطهيرهم وإتمام نعمته عليهم فقـــال في أصحابه: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريـــد ليطهـــركم وليتم نعمته عليكم. لعلكم تشكرون﴾ [سورة المائدة/٦]، وكذلك أخـــبر

---

٨٠ ديوان الحماسة .ص ١٦٣/٢

في أهل بيته، فقال: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الـــرجس أهـــل البيـــت ويطهركم تطهيرا﴾ [سورة الأحزاب/٣٣]، فسكن قلوبهم. وهكذا في هذه السورة بشر النبي بقوله: ﴿يوم لا يخزى الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم﴾ [الآية/٨]، وذلك بعد أن أمرهم بالتشدد في الاحتساب، ووعدهم المغفرة [الآية/٦].

ثم وسع ذمة النبي باحتساب نبوي - مجاهدة بالكفار والمنـــافقين، وأمره بالغلظة قبل لقائهم بملائكة غلاظ شداد [الآية/٩].

ثم ضرب أربعة أمثال على أصل المسألة، وهي استقلال الإنـــسان بذمته لكي يشمر في الدين ويقطع الرجاء عن الأماني الباطلة. وأزاح عذر الغافلين المغترين بآبائهم الكرام كالعرب واليهود. وبقية الكلام في الفصل السابع.

(٢)

بيان كون الاحتساب من سنة الله

التشديد ليس من خصائص هذه البعثة، ولكنها كشفت عنه كـــل الكشف. وعلمنا القرآن أنه من سنة الله وحكمته وعدله. فإنا نتلو في القرآن عتاب الله على آدم ونوح و داود وعيسى ومحمد عليهم الصلوات كما نتلو مجادلتهم وشكواهم في قصة إبراهيم وأيوب ويونس وموسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين. وتعالى الله أن يجترئ عليه العبد الخاضع، ولكني أردت أن تفهم حسن موقع التشديد، فإنه من كمال عناية المولى بتربية عبده، وهـــذا هو أصل نقمات الله. فقد قال: ﴿أخذنا أهلها بالبأساء والـــضراء لعلـــهم يضرعون﴾ [سورة الأعراف/٩٤]. وبـــسط الكـــلام في ســـورة عـــبس والأعراف. نعم يجادل العبد مولاه ويشكو إليه توكلا عليه ورجاء منه.

(٣)

عمود السورة هو الاحتساب والتشمير له

فلا يخفى أن عمود السورة استقلال الإنسان بأمانتـــه، والتوبـــة النصوح، والذمة الدينية، وحسم أدواء الضلالة ليتطهر من كان له أهـــلا، كما قال:﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينـــة﴾ [ســـورة الأنفال/٤٢]. فبين أن على أفراد المؤمنين ذمة لأنفسهم وأهليهم، فحذرهم عن المداهنة وخوفهم بأن ملائكة العذاب ﴿غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ [الآية/٦]، فليس لكم إلا أن تتوبـــوا إلى الله مخلصين ناصحي الجيب له غير خائفين فيه لومة لائم لكيلا تخـــزوا يـــوم القيامة، ولتغفروا وتعطوا نورا كاملا.

وكما أوجب هذا النصح والتشمير على المؤمنين بأنفسهم وأهليهم فكذلك أمر النبي بمجاهدة الكفار والمنافقين، والغلظة عليهم، لعلهم يتوبون في الدنيا وإلا فمأواهم جهنم. ولا يغنيهم قرابة الأنبياء، ولا إيمـــانهم مـــع الارتياب، كما بين في سورة الحديد وهي أول هذه العـــشر مـــن ســـور التطهير. فأوجب الغلظة والتخاشن في أمر الدين كما قال يحيى بن زكريا عليه السلام في صفة هذا النبي: "الذي رفشه بيده وسينقي بيدره ويجمع قمحه إلى المخزن. وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ" (متى ٣: ١٢) وكما تجد الخبر عنه في مكاشفات يحيى أن ذلك النبي "يرعاهم بعصا من حديد". وتفـــصيله في تفسير سورة الفيل.

ولكي تعلم أن الغلظة من واجبات الدين والسياسة الروحانية انظر سيرة عيسى عليه السلام وموسى عليه السلام وأبي بكر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه كما ذكرناهـــا في كتابنا ملكوت الله. وانظر تفسير قوله تعالى: ﴿ودوا لوتدهن فيدهنون﴾ [سورة القلم/٩].

وهذا الاحتساب من مهمات الدين، فإن الله تعالى مع سعة رحمته غني عن العالمين، ويجرى أمره على العدل الكامل. ولا يخفى على البـــصير أن التخاشن ليس من الفظاظة وقساوة القلب بل هو عين الرحمة. ألا ترى كيف نفى الله عن النبي خلة الفظاظة حيث قال: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا مـــن حولـــك﴾ [ســـورة آل عمران/١٥٩]. وبعض البيان تحت قوله: ﴿جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ في (١٤).

(٤)

في أن دين الفطرة هو الاعتدال بين الفسق والرهبانية

الأمر الثاني في الاحتساب هو شدة التزام الاستقامة على الاعتدال. فإن كثيرا من الأمم غفلوا عنه. وقد بين الله تعالى في مواضع كثيرة مـــن القرآن، كما قال تعالى(المائدة ٨٧-٨٨): ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين.وكلـــوا ممـــا رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾. فسمى تحـــريم الطيبات اعتداء.

وكذلك بين لنا النبي الكريم ﷺ أن دين الفطرة والصراط المستقيم هو الاعتدال. وقد وضع السورة بحيث أن تكشف لك الاعتناء الشديد به. فبدأ الكلام بما يردك عن جانب الرهبانية، لتعلم أن تحريم الحلال وإحلال الحرام سواء، وكلاهما الاعتداء والزيغ، بيد أن الفسق من الشهوة والتمرد، والرهبانية من الجهل.

والدين أبعد شيء عن الجهل، فإنه يـــؤدي إلى الـــشرك. والرهبـــة المحمودة تنشأ من العلم، كما قال تعالى: ﴿إنما يخـــشى الله مـــن عبـــاده

العلماء﴾ [سورة فاطر/٢٨]، أي الخشية المحمودة. وبيانه في أول "الم ذلك الكتاب".

وقد عرفنا الله تعالى أهل النار، فقال: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ [سورة الأعراف/١٧٩]. وقد جاءت هذه الآية في ذكر المشركين. فعلمت أن الغفلة والجهل داعية الشرك. وقد مدح الله المؤمنين كثيرا بالعقل والعلم والحكمة وكذلك النبي ﷺ. والحكمة والعلم يهديك إلى سواء الصراط، ويحميك عن جانبي الفسوق والرهبانية. فكلاهما سبيل جائر.

وقد جاء في القرآن آيات أخر للتحذير عن الرهبانية، فقال تعالى لنبيه: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ [سورة الأعراف/٣٢]، وقال تعالى: ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله﴾ [سورة الحديد/٢٧].

(٥)

الفرق بين الفسق والرهبانية

بعد ما علمت أن الاعتدال هو كمال الدين، وأن الفسوق كالرهبانية، لك أن تعلم الفرق بينهما. فاعلم أن الفسوق أكبر شناعة ويخالف العبودية أصلا، وهو التمرد والتشيطن وممقوت من بدء أمره. وأما الرهبانية فهي قد تكون وسيلة للتربية، كما أن الطبيب يُداوى السقيم بالاحتماء. ولذلك يرخص بها في حالات خاصة. والرجل الصالح ربما يجد في نفسه مرضا فيحتمي، وإنما الجهل أن يراها حسنة ومرضاة للرب. فذلك تشويه خلقته وتعويج فطرة الله التي فطر الناس عليها وعند ذلك تورث

أمراضا خبيثة، ويجب المنع الشديد عنها.

والصالحون من عباد الله والأنبياء ربما يوهمك حالهم أنهم يظنونها أحسن وأكمل من خصائل الفطرة. والأمر ليس كذلك، بل يفعلون ذلك لكي يزيلوا مرضا عن أنفسهم أو يسنوا سنة لأمة مريضة، فيصلحوا لحال صحيح ويقربوا إلى الفطرة كما ترى في سيرة يحيى عليه السلام وعيسى عليه السلام في بعض الأمور. فإنهما جاءا لتسوية طريق الفطرة، وتمهيدا للبعثة الخاتمة. وقد نفي عنه تشريع الرهبانية كما مر في آخر (٤). فكلما ترى من رغبة النبي إلى بعض ما يشبه الرهبانية فما كان إلا من جهة التقوى مع الوثوق بكون الطيبات حلالا، وإنما خفي عليه بعض صفات الشئ وظن فيه ضررا. فلذلك كشف الله عليه حقيقة الأمر الملتبس، وفرض عليه تحلة العهد الذي عاهد به كما ستعلم.

(٦)

في أن نزول القرآن حسب أحسن المواقع

قد بينا في كتاب شان النزول أن القرآن يراعي أحسن المواقع للكلام، لكي يتقبله القلوب الصالحة وتنتفع به، كفعل الوابل بعد الجدب، والشبع بعد السغب، والفكاهة بعد العتب حسب جريان سنة الله في ملكه من الفيضان على الاستعداد. فترى الفرج بعد الحرج واليسر بعد العسر. فهكذا لم تنزل هذه سورة الاحتساب إلا حين جاء قدر الله بحال يصلح له.

وقد بينا أيضا في ذلك الكتاب أن الروايات اختلفت وتلونت كما تلون في أثوابها الغول لما توهموا قياسات السلف في مصداق الآيات أخبارا منهم. ثم دخلت فيه دسائس الملحدين فباضت و أفرخت. وليس هذا

موضع تفصيل البحث عنه، فقد فرغنا منه.

فذكروا في شان نزول آيات هذه السورة ما يلقي الغطاء على معنى الكلام ويخلط بالنور الظلام. فوجب علينا أن نكشف هذه الغمة، والله الهادي إلى سبل الحكمة.

(٧)
في شان نزول السورة حسب الكليات

فاعلم هداك الله وإياي أن الناس كما أنهم وقعوا في الشرك من جهلهم فكذلك زعموا أن للقرابة محلا عند الله تعالى. وكان ذلك من أسوإ حماقات الناس، وهلكت به أمم لا سيما اليهود، لغرورهم بآبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وكونهم من أمة فضلهم الله بالنبوة والنصر والملك. وهذا مع الحماقة دناءة للعبد وكفر بنعمة ربه. فإن علو همته لا يرضى له أن يكون بئس الخلف، وحاسة الشكر تردعه عن الافتخار بنعم منحها الله تعالى فضلا من غير استحقاق. والافتخار بالنسب والأصل خاصة الشيطان، وبها هلك ويهلك أتباعه.

فاقتضت رحمة الله تعالى أن يبلو اليهود بالعقوبات المذلة المهينة، لعلهم يذكرون ويطهرون. فأسروا وقتلوا، ولم تزل الدوائر تدور عليهم، وبختهم أنبياءهم كثيرا، ولكنهم لم ينتفعوا به إلا قليلا.

ونكتفي ههنا بما جاء في أول ذكر تعليم يحيى عليه السلام قال لهم: "يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي. فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة. ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أبا لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم. والآن قد وضعت

الفأس على أصل الشجر" ٨١.

وقد أخبر القرآن كثيرا باستقلال الإنسان بنفسه في حمل أمانته، كما قال في سورة لقمان: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ [سورة لقمان/٣٣]. وأشار إلى هذا الأصل في قصص ابن نوح وامرأة لوط، وابن آزر وامرأة فرعون. فتبين لذوي البصيرة أن يوم الجزاء لا تغني عن المرء أواصره.

فههنا أراد الله أن يصرح بهذا الأصل كل الصراحة، ويبين للمنافقين والكفار من العرب واليهود وهما أولاد إبراهيم، أن لا رجاء لكم إلا أن تعملوا الصالحات. وهكذا أراد أن ينبه المؤمنين لما يلزم هذا الأصل من شدة النصح لأهليهم والغلظة عليهم في الاحتساب، وهكذا أراد أن يحذرنا عن الإفراط في الاحتساب لكيلا نحرم الطيبات ونشوه فطرتنا.

فهذه الأمور الثلاثة شعب لأصل واحد. فانتظر الوحي واقعة مناسبة لهذا التعليم الكامل أصلا وفرعا حتى جاءت المقادير بأمر هين حسب الظاهر، ولكن الله تعالى جعله سببا لجلب القلوب إلى معرفة حقائق عظيمة، كما قالت العرب:

تهيج كبيرات الأمور صغارها

ألا ترى كيف أخذ الله أمر الأعمى، فنبه النبي ﷺ على أمر عظيم، أو كيف عاتب موسى وهارون عليهما السلام على نسيان ذكر الله حين ضرب الحجر للماء (انظر العدد ٢: ١١- ١٢و٢٣-٢٤)، أو كيف عاتب سليمان عليه السلام على أدنى غفلة. ولا يأخذ العامة بأكبر الكبائر. وفي

---

٨١ إنجيل متى ٣: ٧-١١ .

ذلك حكم جمة وبصائر لذوي الحجى. وبسط الكلام في هذا البحث تحت قوله تعالى: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ [سورة فاطر/٤٥]، وتحت قوله: ﴿عبس وتولى﴾ [سورة عبس/١].

والمقصود ههنا أن تعلم أن الوحي ينتظر الموقع المناسب دقّ أوجلّ، لكيلا يذهب القول منسيا، ولكي يصغى إليه كل الإصغاء. فإذا جاء الموقع المنتظر لم يكتف بذكر ما يتعلق بمحض الواقعة بل عمد إلى أصل الأمر وفرعه، ووصل بحسن النظام أمورا متباعدة حسب الظاهر. ولذلك وجب التدبر في كتاب الله.

(٨)

شأن نزول الآيتين (١-٢) حسب جزئيات الواقعة والفوائد الكلية منها وهي ست

من ضعف النساء وشدة إحساسهن أنهن ربما يكرهن بعض الأطعمة. فقد عافت بعض أمهات المؤمنين عن بعض الطيبات، ولا بأس أن يكون عسلا كما روى. وبعض أقسام العسل كريه الرائحة ومر الطعم. وكان النبي ﷺ يحب العسل، ولكن إذ علم من بعض أزواجه الكراهة تركه، لما كان على أقصى غاية الإيثار. ثم كان أشد الناس رأفة بالضعفاء لا سيما الأيتام والنساء، كما مر بيانه في أول سورة النساء. ولما أنه كان يحب الطيب ويكره النتن طبعا، ولكونهما من دلالات الحلال والحرام في دين الفطرة، فكف عن ذلك الطعام ابتغاء لمرضاة زوجه المطهرة ووجوه أخر كما ذكرناها. وعلم بذلك أصحابه فكفوا عنه أسوة بالنبي ﷺ. ففرض على جميعهم تحلة أيمانهم التي كانت عهدهم بتركه، وجلى شبهة نقض اليمين: بأن "الله مولاكم"، فليس عليكم ذمة إلا منه، وهو يأمركم

بالتحلة، وأنه لا يأمركم بالسوء والضرر، فهو "العليم الحكيم".

وأدمج الله تعالى في هذا البيان فوائد:

(١) منها أن ابتغاء مرضاة الأزواج من السير المحمودة حتى يجرّ إلى ضرر ديني، كما ترى في سورة لقمان أن الله تعالى وصى بالإحسان إلى الأبوين، ومع ذلك منع الطاعة في المعصية. فهكذا ههنا لم ينهنا إلا عما جرّ إلى ضرر.

(٢) ومنها أن تحلة اليمين واجبة إن كانت خلاف دين الله. لأن العهد لا يكون إلا بتراضي الطرفين، فلا نذر في المعصية كما صرح به النبي ﷺ.

(٣) ومنها ما ذكرنا من إبطال الرهبانية في الفصل الأول والرابع.

(٤) ومنها أنا علمنا عناية الرب بهذه الأمة، وإكمال دينه بهذه البعثة، فلا يترك أهون شئ حسب الظاهر، لتعلم أن ما هو هين في عيوننا فهو بحسب نتائجه عظيم.

(٥) ومنها أن أحكام الشريعة مبنية على العلم والحكمة.

(٦) ومنها أن التحليل والتحريم لا يكون إلا من الله تعالى. وشنع البدعة فيه، كما صرح به حيث قال: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ [سورة النحل/١١٦].

ولم يحرم النبي ﷺ ولكن، عمل النبي ﷺ والصحابة أسوة للخلائف. ولذلك كف النبي ﷺ عن صلاة التهجد بالجماعة. وبسط القول تحت قوله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾ [سورة التوبة/٣١]، وفي سورة الأنعام. فهناك تعلم أن البدعة شعبة من الشرك والكفر.

فهذه معالي الأمور. أما التفحص لخصوصية الشئ الذي تركه النبي ﷺ فليس إلا من السفاسف التي لا ينبغي التعرض لها. وقد ترك الله ذكرها فما لنا ولها. فهذا هو شأن النـزول للآيتين الأوليين. وأما ما بعدهما فواقعة أخرى. والآن نذكر شأنها.

(٩)

شأن نزول الآيات (٣-٥) حسب جزئيات الواقعة والفوائد الكلية منها وهي سبع

فاعلم أن قوله تعالى: ﴿وإذ أسر النبي (إلى قوله تعالى) أبكارا﴾ [الآيات/٣-٥] على طريق ذكر أمر مماثل، كما يجئ كثيرا بعد كلمة "إذ". فبعد ما ذكر من خلقه العظيم ابتغاء مرضاة أزواجه ذكر جعل النبي ﷺ إياهن مواضع سره.

١- وهذا من أعظم فرائض المحبة بين المرء وأهله. فمن أغلق باب أسراره دون زوجه فقد أحط منـزلتها، و لم يرد من هذا الامتزاج الفطري إلا ما كان بين العجماوات.

٢- ثم تحت ذلك بين الله تعالى ما يجب عليهن من المحافظة على السر، كما صرح به بقوله: ﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾ [سورة النساء/٣٤]. وانظر كيف رفع منـزلة حفظ الغيب بما ذكر أنه من صفاته تعالى. ومنه اسمه الستار.

٣- وأيضا علمنا الرفق في الملام، لا سيما بأزواجنا، لما ذكر إعراضه عن بعض الخبر لكيلا يشق عليها ويوحشها.

٤- وإذ أن المحبة بين الضرتين من أحسن خلق النساء علمنا أنه كان بين أزواج النبي أنس ونصح، لا سيما بين أمي المؤمنين حفصة

وعائشة، كرمهما الله لكمال عقلهما وطهارة خيمهما. والحب لا يدع السر مكتوما، فباحت به إحداهما إلى الأخرى. فوبخهما الله تعالى على هذه الزلة، ولعمرك هي أحسن من أكثر الحسنات منشأ.

ألا ترى استغفار نوح عليه السلام لابنه وإبراهيم عليه السلام لأبيه كان من الزلة، ولكنه من الرأفة المحمودة. فهذا مما يشبه الرهبانية لما نشأت عن خلق حسن.

فكما أمر الله تعالى بتحلة ما ترك تشددا كذلك أمر بتحريم ما أحل مسامحة. وبذلك علمنا محل هذا الدين في حاق العدل بجمع اللين والشدة و وضعهما مواضعهما.

(٥) ثم ذكر إنابتهما كما سنبينها في فصل على حدة تحت قوله تعالى: ﴿صغت قلوبكما﴾ [82]. وما أحسن الرجوع بعد الحمية وطعم مرارة التبرم بالحبيب، وهي التوبة الصادقة. وتفصيل هذا تحت آيات: (١٣٣-١٣٥) من آل عمران حيث مدح الله التائبين، وهناك تعلم رفيع منـزلة التوبة.

ثم من فرائض الزوجين المؤانسة. وقد اتفقت الروايات فيما يعاضد هذه الإشارة التي تلوح لنا من قوله تعالى: ﴿وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل﴾ [الآية/٤]. فإن المعلوم من خلق النبي ﷺ أنه كان يشارك أزواجه في أعمال البيت، كما أنه كان يشارك أصحابه في حفر الأرض وصنع الآجر ومثل ذلك.

فلما أظهر النبي ﷺ بعض السخط على إفشاء السر بينهما، وقل الاستئناس بهما كبر ذلك عليهما وهيج فيهما الحمية والغيرة. وهذه قلما

---

٨٢ انظر الفصل الحادي عشر .

تفارق أهل الشرف والعزة، مع أنها في بعض الأحيان خطأ. فأعرضتا عن النبي ﷺ بعض الإعراض، كما يقع بين المرء وزوجه، وحسبتا أنه ليس في شئ من الدين.

ولعلك تعلم ما كان لشرفاء العرب من الإباء والاستقلال، فكانوا أبعد الناس خضوعا حتى صارت هذه الشيمة كالفطرة لهم. ومنها نبعت أكثر محاسنهم.

فوعظهما الله وأوضح لهما أن ولاية النبي بكما ومصيره إليكما (فإن المولى هو الذي يصار إليه) ليس إلا رأفة منه بكما. فإن له شغلا شاغلا وحبلا جاذبا إلى الله وروح القدس و صلحاء المؤمنين، ثم هو محفوف بالملائكة، فلن يعدم الاستئناس.

(٦) وبين لهما أن الإعراض عن النبي في المعروف إعراض عن أمر الله، ولابد لكما من التوبة إلى الله.

(٧) ثم بالآية (٥) رفع الحجاب وكشف الغطاء عما كان بهما من ظن الكرم الديني والتقوى. فبين لهما أن الله اصطفى لنبيه أهل بيته وطهرهن بالأخلاق الحسنة بفضله وحكمته، كما قال: ﴿الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾ [سورة النور/٢٦]، وقال: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ [سورة الأحزاب/٣٣].

فليس لهن أن يفتخرن بحسناتهن، فإن ذلك النور من قرب النبيﷺ. فلو فارق الله بكن عن النبي واصطفى له أزواجا أخر عسى أن يجعلهن خيرا منكن في الأخلاق المطهرة، ليعلمن ينبوع هذا الفخر الديني، فتخشع قلوبهن، وقد لانت من قبل. فإن الحمية كانت من الحياء والغيرة والمحبة كما يكون بين الزوجين. فإن هناك الاستغناء ظاهرا وباطنه التحنان وهكذا كان الأمر، كما بينا في الفصل الثاني عشر.

وكان ربط القصة باثنتين من الأزواج، ولكن الله تعالى في هذه الآية الزاجرة جاء بصيغة الجمع إنباء بعموم الأمر وتخفيفا لوقع التوبيخ.

فحصل لنا من هذه الواقعة أيضا فوائد جمة بها صلاح البيت من حسن السلوك بالأزواج مع الاحتساب، ليكون لنا طريق معتدل في تدبير المنزل وهو أساس التمدن. فإن فساد البيت والمساءة بين المرء وزوجه يجر إلى فساد الملك وهدم الصلاح. ومن ههنا أهمية هذا الطرف من الشرائع.

والآن نذكر شأن نزول السورة من هذه الجهة والله الهادي إلى الرشاد.

(١٠)

أمر كلي في شأن نزول الآيات (١-٥) وكونه من المهمات

من المعلوم عندنا معشر المسلمين أن الإسلام جاء بين شدة اليهودية ولين النصرانية، فهذا الأصل الكلي يهديك إلى فهم درجة الاعتدال في أكثر جزئيات شريعتنا. وههنا نقتصر على ما يتعلق بهذه القصة.

فاعلم أن شريعة اليهود وسائر أحكامها كانت ثقيلة على النساء ومخففة لكفتهن في ميزان المعاشرة. وسنة النصارى وقعت على أقصى طرف اللينة، كما بينا في كتابنا الناسخ والمنسوخ. وربما تكون نتيجة طرفي السبيل واحدة. فقد جعل الله الصلاح في الاعتدال والقصد.

وأما العرب فكان أمرهم التنازع في هذه الحقوق، فكانت الرجال والنساء تأخذ كل فرقة منهما بأكثر ما استطاعت. ولما أن العرب كانت تحسب اضطهاد الضعفاء خلاف الكرم والحمية التي سيطت من دمهم

فكان ذلك جبرا لضعف النساء. فاضطربوا حالا وكانت الغلبة بينهم سجالا، كما لا يخفى على الممارس بتاريخ أيام الجاهلية. قال امرؤ القيس فيهن:

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيفٍ و لم يغلبك مثل مغلب ٨٣

فسمى النساء مغلبة، وفي هذا إشارة إلى نزاع وخصام.

وهكذا كان حال قريش في مكة، فإنهم كانوا على أحسن سجايا العرب. وكانت منزلة النساء عندهم بين بين مع اضطرابها كما ذكرنا. فلما تلبثوا في يثرب وفيهم النصارى واليهود، ودخل في الإسلام كثير من المتنصرين، وخالطت نساؤهم بنساء المسلمين تقلب الأمر، كما روى ابن عباس عن عمر بن الخطاب في هذه القصة أنه قال:

"كنا معشر قريش تملك رجالنا نساءنا فقدمنا المدينة فوجدنا نساءهم تملك رجالهم. فاختلطت نساؤنا بنسائهم فذئرن على أزواجهن".

فوجب الآن أن يبين الله تعالى مالهن وعليهن. فجاء قدر الله بحال يصلح لتعليم هذا الطرف المهم من شرائع تدبير المنزل. فنزلت سورة النساء بأكثر سننها مما يتعلق بالمواريث والنكاح والقول الفصل في درجة النساء. وكذلك بعض ما يتعلق بهن نزل في سورة البقرة. فأعطى النساء حقوقا مستقلة ليتمسكن بها عند الاختلاف، ويقضي بها لهن وعليهن، ولا يبقى الهضم ولا الخصام. وهذه هي العمدة والمصلحة الكبرى لوضع تفاصيل الشرائع.

وقد هلك النصارى لإجمال شريعتهم، فضلوا ضلالا بعيدا. لأن

---

٨٣ ديوانه: ٤٤ .

إجمال الشرع إنما يصلح عند صلاح الحال. فأما إذا فسدت الأخلاق فلابد من التفصيل في شريعة باقية على اختلاف الأحوال.

ثم سورة النور في الوسط وسورتا النساء والأحزاب على الجانبين.

ثم في هذه السورة التي قدر الله نزولها لواقعة خاصة بين لنا ما يجب علينا من الذمة في أهلينا، وجمع شدة الاحتساب مع حسن السلوك بهن كما مر بعض القول عليه في الفصول السابقة. فلم يترك لنا طريقا ملتبسا في أمر النساء كما ترى في النصارى لا يدرون هل هم قوامون على النساء أم هن حاكمات على الرجال. وبسط القول في سورة النساء تحت قوله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء (إلى قوله تعالى:) إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما﴾ [الآيتان/٣٤-٣٥].

وإذ هذه السورة مع التي قبلها آخر سور الأحكام، وسورة البقرة أولها، ثم سورة النور في الوسط، وسورتا النساء والأحزاب على الجانبين تبين لنا كيف كان اعتناء القرآن بحقوق النساء وصلاح أمرهن. وذلك من خصائص هذا الدين الكامل المتم.

والأمر العظيم الذي صرح به في سورة النساء وهذه السورة وغيرها من القرآن هو أن مدار الشرائع على أنا أبعاض نفس واحدة. فإن أصلحنا أمرنا صرنا كما كنا نفسا واحدة. فحكومة الرجال على النساء ليست من الاضطهاد، بل خدمة بعض لبعض كأعضاء شخص واحد. وبسط الكلام تحت قوله تعالى: ﴿خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾ [سورة النساء/١].

وإذ قد فرغنا عن التفصيل في تفسير سورة النساء كفاك هذا القدر ههنا.

(١١)

في إيضاح معنى قوله تعالى: "صغت قلوبكما" من جهة اللغة

في جميع الألسنة، ولا سيما في لغة العرب ألفاظ خاصة لأفراد خاصة تحت معنى كلي. والذهول عن هذه الخصوصيات مبعد عن فهم اللسان، مثلا "الميل" معنى كلي. ثم تحته: الزيغ، والجور، والارعواء، والحيادة، والتنحي، والانحراف كلها للميل عن الشئ ؛ والفيء، والتوبة، والالتفات، والصغو كلها للميل إلى الشئ فمن خبط بينهما ضل وأضل

فلا يخفى على العالم بلسان العرب أن قوله تعالى: "صغت قلوبكما" معناه أنابت قلوبكما، ومالت إلى الله ورسوله. فإن الصغو هو الميل إلى الشئ، لا عن الشئ.

منه صاغية الرجل: لأتباعه، وصغوه معك: أي ميله.

وأصغيت إلى فلان: أي ملت بسمعك نحوه. ومنه الحديث:

"ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا" ٨٤.

أي أمال صفحة عنقه إليه ٨٥.

وقالوا: الصبي أعلم بمصغى خده: أي هو أعلم إلى من يلجأ أو حيث ينفعه. ومنه صغت الشمس والنجوم: أي مالت إلى الأرض.

وفي حديث الهرة: "كان يصغي لها الإناء" ٨٦ أي يميله ليسهل عليها الشرب.

---

٨٤ من حديث طويل أخرجه مسلم في كتاب الفتن (ذكر الدجال) وانظر المسند ٢: ١٦٦.

٨٥ لسان العرب (صغو) .

٨٦ الحديث بهذا اللفظ وشرحه في النهاية ٣: ٣٣ (تحقيق الزاوي والطناحي ،

ومن ذلك [الصغو] ٨٧ لجوف الإناء لما يجتمع فيه المشروب. أنشد ابن برِّي شاهدا على الإصغاء بالسمع لشاعر:

ترى السفيه به عن كل مكرمة   زيغ و فيه إلى التسفيه إصغاء ٨٨

وقال ذو الرمة يصف الناقة:

تصغي إذا شدها بالكور جانحة   حتى إذا ما استوى في غرزها تثب ٨٩

وقال الأعشى في صغو العين يصف ناقة:

ترى عينها صغواء في جنب مؤقها   تراقب كفي و القطيع المحرَّما ٩٠

وقال النمر بن تولب في إصغاء الإناء بمعنى الإفراغ:

وإن ابن أخت القوم مصغى إناؤه   إذا لم يزاحم خاله بأب جلد ٩١

نقلت كل ذلك عن لسان العرب مع بعض التصريح لرفع شبهة أو توهم. وفي هذا كفاية لمن حبب إليه الحق، فلا يصغي إلى ما دسته

الحلبي ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م) وأخرجه مالك وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه كلهم في الطهارة واللفظ عندهم "فأصغى لها الإناء". ٨٧ تكملة من اللسان وهي ساقطة من التفسير .

٨٨ لسان العرب (صغو) وفيه "التشبيه" بدل "التسفيه" ، و"فِيَّ" بدل "فيه". والمؤلف رحمه الله أخذه من لسان العرب، فصحفه كما صحح مصحح الطبعة الحديثة ، انظر حاشيته .

٨٩ ديوانه ١: ١٣٦ (تحقيق عبد القدوس أبو صالح) مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٣٩٢-١٩٤هـ/١٩٧٢-١٩٧٤م) .

٩٠ ديوانه: ٤٨ .

٩١ لسان العرب (صغو) .

الوضاعون في الآثار وحرفوا المعنى بعد ما أعجزهم الله عن تحريف كلماته. وقد هموا به، فقد ذكر أبو سعود رحمه الله [٩٢] في تفسيره أنه قرئ: "زاغت"[٩٣] أي قرأه من لا يعبأ به. فهل ترى كيف سعيهم في أن يبدلوا معنى "صغا" إلى "زاغ". ولكن الله تعالى يمكث بالحق ويذهب بالباطل.

(١٢)

إيضاح أسلوب الآية:

﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾

بعد ما علمت معنى كلمة "صغت قلوبكما" نوجهك إلى أسلوب هذه الآية ليكشف لك ربط أجزائها.

فاعلم أن العرب عادتهم حذف ما يستغنى عنه، لولوعهم بتهذيب كلامهم عن الفضول. وهذا باب عظيم من البلاغة. فنقتصر ههنا على ما يكون بين "إن" الشرط و"قد" التحقيق.

ونورد أولا الأمثلة ليظهر لك ما نشير إليه من المحذوف. قال تعالى: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ [سورة الأنفال/١٩]. وقال تعالى: ﴿و إن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك﴾ [سورة فاطر/٤]، وقال تعالى: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله﴾ [سورة التوبة/٤٠]. وقال تعالى: ﴿وإن يعودوافقد مضت سنة الأولين﴾ [سورة الأنفال/٣٨]. وقال تعالى: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين﴾

---

٩٢ هو محمد بن مصطفى العمادي (٨٩٨-٩٨٢هـ) مفسر شاعر من علماء الترك انظر الأعلام للزركلي ٧: ٥٩ .

٩٣ تفسير أبي السعود ٥: ٣٥١ .

[سورة الأنعام/٨٩].

وأما في كلام العرب فقال مرداس بن حصين، وهو جاهلي:

فإن نزرأهم فلقد تركنا   كفاءهم لدى الدبر المضاع

فإن تأملت في هذه الأمثلة علمت أن الجملة بعد "قد" تذكر أمرا ليسهل به ما ذكر بعد "إن" كأن تقدير الكلام أنه إن يكن كذا وكذا فلا بأس أو لا إشكال أو الأمر هين، فإنه قد وقع كذا وكذا.

فالتأويل الواضح للآية أنه – أن تتوبا إلى الله بابتغاء مرضاة النبي كما هو يبتغي مرضاتكما فهذا هو المرجو منكما، فإن قلوبكما راغبة إليه. ولا أدري أي حاجة حمل الناس على العدول عن معنى اللفظ وفحوى الكلام، غير أن عولوا على بعض الروايات المكذوبة على ابن عباس ﵁ وحاشاه عن ذلك.

(١٣)

كشف المكنون في قوله تعالى: "إن تتوبا إلى الله" و"توبوا توبة نصوحا"

المراد بالتوبة هي التوبة الكاملة التي لا يبقى معها محل للخلاف. فهي التي تكون بعد الصغو. وبهذه التوبة يصير الزوجان نفسا واحدة، وكذلك العبد يفنى في العبودية، فيكون مولاه سمعه وبصره وفؤاده. وقد جاء كثيرا في الكتب السابقة مثل الابن والمرأة للأمة الطائعة. وتجد شرح ذلك في كتابنا "الأمثال الإلهية".

وقد ضلت بهذه الأمثال اليهود والنصارى، فقالوا نحن أبناء الله وأحباؤه. والقرآن يتجنب عن مثل ذلك الكلام، ولكنه ربما يأتي بإشارة لطيفة لكي تخفى على العامة فلا يفتنوا بها (ارجع إلى تفسير سورة الطلاق).

فبعد ما أمر أزواج النبي بالتوبة الكاملة أمر العباد عموما بها،

وسماها نصوحا، أي خالصا. ووعدهم النور والقربة مجتمعين بالنبي كما كانوا معه في الدنيا ومع أهليهم، كما صرح بذلك بقوله تعالى: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم﴾ [سورة الطور/٢١]، وفي قوله: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا﴾ [سورة الانشقاق/٧-٩]. فذلك اجتماعهم بأهلهم.

ثم أخبر باجتماع الصلحاء بينهم، فقال: ﴿يا أيها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾ [سورة الفجر/٢٧-٣٠]. ثم بشر بقرب حضرته، فقال: ﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون﴾ [سورة الواقعة/١٠]. وقوله: "ارجعي إلى ربك"، وقوله: "جنتي" يلمحان إلى هذا. وفي القرآن وكتب الأنبياء أخبر عنه كثيرا إشارة وتصريحا. ولولا هذه القربة لتسعرت الجنة لعباده. ألا ترى كيف أخبرنا عن أصحاب النار، فقال: ﴿إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ [سورة المطففين/١٥].

فإن تبين لك معنى التوبة والرجوع في الدنيا والآخرة، وعلمت أن العبد يأوي إلى مولاه ويتطهر عن سواه وحينئذ تقر عينه وتلذ نفسه ويرغد عيشه وتكمل غبطته، ثم علمت أن المرأة إذا خانت مولاها كيف يحمى غضبه وتتلظى غيرته، فحينئذ يوشك أن تفهم موقع هذا المثل الذي ورد كثيرا في كتب الأنبياء ويتمهد لك الطريق إلى فهم رباط آيات ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار﴾ [الآية/٩] إلى آخر السورة، كما نذكره الآن.

(١٤)

تفسير قوله تعالى: "يا أيها النبي جاهد الكفار" بحيث يتضح ربطها بالسورة

فاعلم أن قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ

عليهم﴾ إلى آخر الآية يتضمن أشد التبليغ، ليتوب منهم من فيه أدنى الاستعداد وهذه الآية قد جاءت في سورة التوبة بعينها. وبعدها: ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله، فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة، وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير﴾ [سورة التوبة/٧٤]. فترى أن الغلظة لأجل أن يتوب منهم من يتوب، ثم يبقى من حقت عليه كلمة العذاب. والكلام على الغلظة لأجل التوبة تجده مبسوطا في سورة التوبة.

فلم تكن هذه الغلظة إلا لتخليص الخير من الشر، وذلك ربما يكون بالغلظة كما أنه يكون باللين. وقد ضرب الله لهما مثلا حيث قال: ﴿أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا (فهذا مثل استعمال اللين) ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله. كذلك يضرب الله الحق والباطل (أي يضرب بعضه ببعض فينكسر الباطل، كما قال: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ [سورة الأنبياء/١٨] (وهذا مثل استعمال الغلظة) فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾ [سورة الرعد/١٧]، ففي هذا التلخيص تنقطع علائق القرابة وأسبابها، ويفصل المرء من أمه وأبيه وصاحبته وبنيه. وذلك هو التطهير، كما قال تعالى: ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ [سورة آل عمران/٥٥].

(١٥)

شرح الأمثال الأربعة

فضرب الله على هذا التطهير، وانقطاع ما بينهم من علائق الدنيا،

ووصلهم بمولاهم وخلص عباده أربعة أمثال على طريق تبين لـك منه تفاصيل هذا الأصل، وهي أمور:

الأول: أن قرابة البار لا تغني عن الفاجر شيئا في الآخرة.

والثاني: أن الصلحاء أنفسهم يتبرأون من أقرباء السوء، ويهاجرون إلى الله ورسوله كما سألت امرأة فرعون حيث قالت: ﴿رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظلمين﴾ [سورة التحريم/١١]، فصرمت حبال قومها وأهلها، وسألت بيتا عند مولاها. فكذلك يصرم العبد حبال الظالمين، ويهاجر إلى الله وهذا طهارته و فرقانه وخاتمة أعماله.وهكذا فعل إبراهيم عليه السلام كما أخبرنا الله تعالى عنه مرارا وجعل لنا فيه أسوة. وقد مر البيان في سورة الممتحنة.

والثالث: أن الله تعالى يطهر الصلحاء في الدنيا، ويستجيب دعاءهم. فترى كيف نجى امرأة فرعون منه. وهكذا قصة نوح وإبراهيم ولوط وموسى وعيسى وجميع الأنبياء عليهم السلام، حتى أن جعلها الله تعالى من سننه. وصرح بذلك في القرآن مرارا، مثلا حيث قال: ﴿ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [سورة العنكبوت/١-٣].

ولا شك أن الله يعلم الظاهر والباطن، ولكن المراد أن يجعل حالهم مشهودا مكشوفا على المسلمين، فيتبرؤا منهم كما أمرهم الله.

وهكذا قال: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله (أي أن الله لا يطلعكم على سرائر القلوب، ولكنه يبرز عليكم أفعال المنافقين بعصيانهم الرسول فاجتهدوا في

طاعة الرسول وحققوا بذلك إيمانكم، فتميزوا وتستحقوا أجر المتبعين، كما صرح بعدها) وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم﴾ [سورة آل عمران/١٧٩]. وتفصيل البحث في تفسير سورة الحديد وسورة الكافرون وغيرهما.

وحاصل الأمر أن النبي لا يذهب قبل الفتح والفرقان والفصل الواضح بين المؤمنين والكافرين والمنافقين. ولذلك وجبت الغلظة ليتم النور، ويكمل أمر الدين، ويخلف أمة تقوم بأعباء الأمانة الدينية، ليكونوا حزب الله وشهداءه على الناس، كما ترى موسى وعيسى وسائر النبيين عليهم السلام خاطبوا الناس بأغلظ الكلام في آخر وقتهم.

والرابع: أن الأمة المؤمنة إذا أخلصت لربها، وسدت مواقع المخافة عليها فإن ذلك معنى الفرج، كما قال لبيد في معلقته:

فغدت كلا الفرجين تحسب أنها مولى المخافة: خلفها و أمامها [٩٤]

وهذا كثير. وبسط الكلام فيه في تفسير سورة الأنبياء. فحينئذ يتنزل عليها الملائكة بالروح، والسكينة، ورزق حسن من الله، وبالنصر والغلبة على الأعداء كما وقع بمريم بنت عمران عليها الصلوات. ومر التفصيل في تفسير سورة المجادلة تحت قوله تعالى: ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله

---

٩٤ ديوانه: ٢٢٢ وجمهرة أشعار العرب: ٣٦٧ قال في شرحه: "ومولى المخافة": أي الموضع الذي فيه المخافة. قال الله عزوجل: "فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين" أي وليه. انظر ص: ٣٦٨ .

عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ [الآية/٢٢]. وهناك بينا أن هذا الحزب لابد أن يغلب ويظهر على الناس. وتجد هذا البحث في تفسير عدة سور مثل آل عمران والأنبياء، والنور، والصف، وقل يا أيها الكافرون، والنصر، وغيرها.

فبهذه الأمثلة الأربعة أشار إلى خذلان الكفار، وغلبة الأبرار. وختم بذكر القنوت والإنابة إلى الله. فتمت حصة سور الأحكام حسب ترتيب القرآن، وحسب ترتيب وقائع البعثة، وحسب ترتيب سنة الله في الخلق. فإن آخر الأمور أنه إليه المصير، فهو المولى وهو النصير، كما تجد البيان في سورة الإخلاص وغيرها. ذلك فحوى الأمثلة بالإجمال، فأما تفصيلها فنذكره الآن.

(١٦)

في ربط الأمثال الأربعة وتطبيقها

فاعلم أن المثل الأول والثاني في الكفار. وإنما قدمهما لربطهما بما سبق من ذكر المنافقين، وليختم السورة بالقنوت لمصلحة بيناها. ولما ضرب أمثال النساء للعباد عامة راعى أمورا تصلح بأحوالهم وأحوالهن، وهي الأمانة بإيفاء العهد، وبحفظ السر، والتبتل من الأجانب والطهارة، والتصديق بكلمات الله وكتبه، والقنوت.

ولم يذكر من خيانة امرأة نوح شئ في الكتب السابقة، ولا في القرآن. ولذلك قال سعيد بن جبير: "وأما امرأة نوح فلا علم لي بها" ٩٥. وأما امرأة لوط فاتفقت الصحف السابقة وهذا القرآن على أنها التفتت٩٦

٩٥ تفسير الطبري ٢٨: ١٠٩ .

96 هذا ما ذكره بعض المفسرين وذهب كثير منهم إلى أنها لم تخرج معه وهو ظاهر

فلم تقم على العهد، واستخفت بأمر مولاها، وما روى عن ابن عباس، قال:

"كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما. فكانت امرأة نوح عليه السلام تطلع على سر نوح. فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به، فكان ذلك من أمرها. وأما امرأة لوط فكانت إذا استضاف لوط أحداً أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء" ٩٧.

وفي رواية عنه: "أما امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون" ٩٨. فهذا كله من استنباطه الحسن، ولم يرو فيه عن النبي ﷺ شيئا. وعندي أيضا أنهما لم تطيعا، واستخفتا بهما.

ومن أكبر صفات المرأة والعباد أن يطيعوا مولاهم ويقيموا على عهد الإطاعة، كما صرح في الأحزاب، فذكر صفات النساء والرجال سواء.

فعلمنا الله تعالى بهذه الأمثال ما ينبغي لنا من الطاعة الصادقة والعبودية الكاملة مع المحبة والطوع وبذل النفس والمال كما يحسن بين المرء وزوجه مثلا ناقصا، ولله المثل الأعلى. ودون ذلك خيانة ومرض. وأما البحث عما روى عن ابن عباس من حالهما فتجد في الفصل التالي.

والمثل الثالث والرابع في المؤمنين. فأما المثل الثالث فقد بين الله تعالى فيه التبتل والرغبوت إلى المولى الحق. تدبر في قوله: ﴿إذ قالت رب

قوله تعالى: كانت من الغابرين .انظر تفسير ابن كثير .

٩٧ المرجع السابق .

٩٨ المرجع السابق .

ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾ [الآية/١١]. فلنا في كلمة "عندك" قرة عين جلت عن البيان.

وأما المثل الرابع فصرح بكمال النعمة، كما بينا في الفصل السابق. فمريم عليها السلام مثل المؤمنين في إتمام النعم والنصر والغلبة، لا سيما الأنصار. ومحمد عليه الصلوات كلمة الله. فإن الأرواح الطيبات كلم الله. وبيانه في سورة فاطر تحت آية: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ [سورة فاطر/١٠].

وهذا الاسم اشتهر لعيسى عليه السلام ولكن خاتم الأنبياء جامع أوصافهم. وقد جاء في مكاشفات يوحنا في بشارة هذا النبي الكريم إنه سمى "أمينا" و"كلمة الله"، كما بيناه مصرحا في تفسير سورة الفيل في الفصل السابع منه.

(١٧)

ربط الأمثال بقصة السورة وبشأن نزولها الخاص

قد بينا ربط هذه الأمثال بالعباد كافة. فأما ربطها بأول السورة وقصتها فقد علمت أن السورة تعتني بشدة الاحتساب، فتبتدأ بما هو أمر هين بل حسن من وجه، وتردع عنه، لتعلم غامضة الشريعة وتجتنب ما يجري إليه الأمر السهل ويصير حجابا مستورا، ثم ينكشف فينقلب سورا وحجرا محجورا.

وفي هذه سور التطهير علمنا الله تعالى أن نقطع حبال المودة عن أقربائنا في ذات الله، ونحافظ على سره. وفي ذلك بلاء عظيم وامتحان شديد كما مر في سورة الممتحنة.

وإظهار السر إلى غير أهله خيانة كبيرة، فإن بناء الصلاح على ذلك. ولا يخفى عليك أن الأمير مع أصحابه كالمرء مع زوجه لابد أن يطلعهم على الأسرار ويشاورهم، حتى أن الله تعالى أمر النبي ﷺ بذلك. وقد كان للنبي ﷺ أصحاب السر وهم خاصته مثل أبي بكر وعمر رضي الله

عنهما وبعد هذا الطراز الأول كثير من أصحابه بل عامة المسلمين كانوا يعلمون كثيرا مما لا ينبغي إظهاره على الكفار. ولعمرك هذه المسارة عقدة وثيقة للمحبة حتى أن كثيرا من الأمم اتخذوها سببا لإنشاء فرقة وإبقائهم من السلف إلى الخلف في الأمم الوثنية، ومنهم الفرامسيون. فإن لم يحافظوا على السر أضاعوا أمرهم وهدموا بنيانهم ولذلك قال النبي ﷺ: "المستشار مؤتمن"

وكذلك منع الله المسلمين عن إظهار خبر ذي خطر إلا على أولى الأمر منهم حيث قال تعالى في سورة النساء: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف إذا عوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ [سورة النساء/٨٣].

فإذا كان الأمر هكذا، وكان حفظ السر من أعظم خلال أمة، وجاء القدر بواقعة مناسبة أخبر الله عن منزلته.

وإذ قد بدأ السورة بفرض تحلة يمين نشأت من ظن بعض الورع، وكذلك بالنهي عن مسارة جاءت من الصفاء بين لنا في آخر السورة كيف أفضت هذه المداهنة إلى الكفر والحرمان في حق امرأة نوح عليه السلام وامرأة لوط عليه السلام، فإنهما لم تحافظا على سرهما.فكان في المثلين السابقين إنباء وتنبيه وعبرة لجميع الأمة، ولأزواج النبي ﷺ، لكي يكملوا في القنوت والأمانة، ويكونوا جديرين بالنبي وإلا يفرقوا عنه فيحجبوا عن الرب.

ثم جاء بالمثلين للقانتين الواصلين حسبما مر في الآية (الثامنة) ليعلموا رفيع منزلة الطاعة الكاملة ويكونوا بالنبي كالنفس للروح، فيدخلوا معه باطن السور والنور والسرور كما ذكر في سورة الحديد. وهذا هو المراد من التزكية التي وعدها الله النبي ﷺ في قوله: ﴿ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ [سورة آل عمران/١٦٤، وسورة الجمعة/٢]. فإن التزكية لهي الغاية القصوى من الكتاب والحكمة وبها تكميل الشريعة و إتمام الدين. هذا، والله تعالى أعلم بما أراد وهو الهادي إلى سبيل الرشاد.

تفسير سورة التحريم

فهرس مطالب الفصول